

١١ - سورة هود

مكية وآياتها ثلاث وعشرون ومائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَرَأَيْتُكَ أَهْلَكَ بِأَنْفِكَ مِمَّا نَفَيْتَ مِنْ لَدُنِّكَ حَكِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ أَلَمْ نَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَرَأْيُكَ وَيَشِيرُ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا لَكَ ذُنُوبًا إِلَيْنَا يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّ إِلَهَنَا لَغَنِيٌّ ﴿٣﴾ أَلَمْ نَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَرَأْيُكَ وَيَشِيرُ ﴿٤﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا لَكَ ذُنُوبًا إِلَيْنَا يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّ إِلَهَنَا لَغَنِيٌّ ﴿٥﴾﴾

تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق، وأما قوله: ﴿أحكمت آياته ثم فصلت﴾ أي هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها فالقرآن كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير، وقوله: ﴿من لدن حكيم خبير﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بمواقب الأمور ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي أنزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، وقوله: ﴿إنني لكم منه نذير وبشير﴾ أي إنني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه؛ كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم الستم مصدقني؟» فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، وقوله: ﴿وأن استغفروا ويكفم ثم توبوا إليه﴾ أي وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تسروا على ذلك، ﴿يمتكم متاعاً حسناً﴾ أي في الدنيا، ﴿إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ أي في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقولته: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجيبه حياة طيبة﴾ الآية، وقد جاء في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك»، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾، قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا، بقيت له عشر حسنات، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده على أعشاره^(١). وقوله: ﴿وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾، هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إلى الله مرجعكم﴾ أي معادكم يوم القيامة، ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام ترهيب كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يُلْقُونَ سُحُورَهُمْ لِتَسْتَفْعِلُوا مِنْهُ أَلَا جِئْتُمْ بِشَيْءٍ كَذِبٍ كَبِيرٍ ﴿٦﴾﴾

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، وفي لفظ آخر له: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء،

(١) أخرجه ابن جرير الطبري.

﴿لِيلُوكُمْ﴾ أي ليختبركم ﴿أبْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولم يقل أكثر عملاً، بل ﴿أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل، وقوله: ﴿وَلَنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ الآية، يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداية، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي يقولون كفرةً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول، وقوله: ﴿وَلَنْ أَخْرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ الآية، يقول تعالى: ولئن أخرنا عنهم العذاب والمواخذه إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم إلى مدة مضرورية ليقولن تكذيباً واستعجالاً ﴿مَا يَحِبُّهُ﴾ أي يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجايهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا مخرج، والأمة تستعمل القرآن في معان متعددة، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية: ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾، وقوله في يوسف ﴿وَأَذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، وتستعمل في الملة والدين، كقول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾، وتستعمل في الجماعة كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾، وتستعمل في الفرقة والطائفة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَوْمَ مُوسَى أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَلَيْنَ آدَمَ الْإِنْسَانَ بِمَا رَحِمَهُ ثُمَّ تَرَفَّتْهَا بِيَنَهُ إِنَّهُ لَيَتُوسُّ كَفُورٌ ﴿١١﴾ وَلَيْنَ آدَمَ نِعْمَةً بَعْدَ ضِرَّةٍ مَسْتَهَّ بِعَوْلَانٍ ذَمَّ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له بأس وتوطل بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً ولم يرج بعد ذلك فرجاً، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نعمة ﴿لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ هُنِي﴾ أي يقول ما ينالني بعد هذا ضميم ولا سوء، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ أي فرح بما في يده بطرف فخور على غيره، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي على الشدائد والمكاره، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي في الرخاء والعافية، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء كما جاء في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها»، وفي «الصحيحين»: «والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سره فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن».

﴿فَلَمَلَكْ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاحِبٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابٌ أَوْ كَمَا نَحْنُ نَدْعُو رَبَّنَا إِنَّ اللَّهَ عَلَّمَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ وَمَا يُغْنِيكَ عَنْهُ الْقُرْآنُ كَلَّا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّزِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ أم يقولون ﴿أَفَرَأَيْتُمْ قُلُوبَنَا مَا نَحْنُ بِقَادِرِينَ عَلَيْهِ مُغْفِرَتِكَ وَأَدْعَاؤِنَا أَنْ تَسْتَعْتِدَّ بِنُورِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ وَأَلَمْ يَنْجِيهِمْ لَكُمْ فَأَعْمَوْا أَلَمْ يَأْتِرْ بَلْ يَلْمُ اللَّهُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٢٦﴾.

يقول تعالى مسلماً لرسول الله ﷺ عما كان يعتنق به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسْحُورًا﴾، فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل أثناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿فَلَمَلَكْ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاحِبٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا﴾ أي لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل. ثم بين تعالى

عجاز القرآن، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله، لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي فإن لم يأتوا بما دعوتهموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا لُذُنَّ إِنَّمَا أَصْلَحْنَاهُمْ فِيهَا وَفَرَّ فِيهَا لَا يَحْشُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرَوْا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَبَّحُوا بِهَا وَيَكْبَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال ابن عباس: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون تقيراً، يقول: من عمل صالحاً للتماس الدنيا صوماً أو صلاة لا يعملها إلا التماس الدنيا، أولئك الذي التمس في الدنيا من العثابة وحبط عمله الذي كان يعملها وهو في الآخرة من الخاسرين، وقال أنس والحسن: نزلت في اليهود والنصارى، وقال مجاهد: نزلت في أهل الرياء، وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازي بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادِ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدِ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾.

﴿أَلَمْ نَكُنْ عَلَى سَعْيِكَ مِنَ رَبِّهِمْ وَمَتَلَوْا شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلِهِ كَتَبَتْ سُورَةٌ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِنْهُ إِنَّهُ لَخَبِيرٌ مِنَ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

بخير تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى، التي فطر عليها عباده، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية. وفي «الصححين»: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». الحديث. وفي «صحيح مسلم»: «يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً». فالمؤمن باق على هذه الفطرة، وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة، المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال ابن عباس ومجاهد: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ إنه جبريل عليه السلام، وعن علي والحسن وقاتدة: هو محمد ﷺ، وكلاهما قريب في المعنى، لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلغه النبي إلى أمته، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم، فمن آمن به حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض، مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿لَا نُؤْتِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ كما ورد في «الصحیح» «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(١)، وقال سعيد بن

(١) أخرجه مسلم عن أبي موسى الأشعري.

جبير: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت تصديقه في القرآن، فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار»، فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ حتى وجدت هذه الآية: «ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده»، قال: من الملل كلها، وقوله: «فلا تك في مربة منه إنه الحق من ربك» الآية، أي القرآن حق من الله لا مربة ولا شك فيه، كما قال تعالى: «تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين»، وقال تعالى: «آلم * ذلك الكتاب لا ريب فيه»، وقوله: «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون»، كقوله تعالى: «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين»، وقوله: «وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله».

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعَذِّبُهُمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْآسِفَةُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿١٨﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُجْرِمِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا لَمُذْرِبٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ آيَاتِهِ يُصَنَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَفِيحُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانُوا بِبَصِيرَةٍ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَهُمُ الْأَشْرَارُ ﴿٢٢﴾﴾.

يبين تعالى حال المفتريين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، كما ورد عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يذني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: «الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»^(١) الآية. وقوله: «الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً» أي يردون الناس عن اتباع الحق، وسلك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل، «ويبغونها عوجاً» أي ويريدون أن يكون طريقهم «عوجاً» غير معتدلة، «وهم بالآخرة هم كافرون» أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها، «أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء» أي بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم، ولكن «يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار»، وفي «الصحيحين»: «إن الله ليعلم للظالم حتى إذا أخذه ثم يفلته»، ولهذا قال تعالى: «يضاعف لهم العذاب»، الآية أي يضاعف عليهم العذاب، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صمّاً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخير تعالى عنهم حين دخولهم النار «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير».

وقوله تعالى: «أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون» أي خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يفر عنهم من عذابها، كما قال تعالى: «كلما خبت زدهم سعيراً»، «وضل عنهم» أي ذهب عنهم، «ما كانوا يفترون» من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئاً بل ضررتهم كل الضرر، كما قال تعالى: «وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين»، وقال تعالى: «سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً» وقال الخليل لقومه: «ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ومأواك النار وما لكم من ناصرين» إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرتهم ودمارهم، ولهذا قال: «لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون»، يخبر تعالى عن مآلهم بأنهم أخسر الناس في الآخرة، لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آذ، وعن الحور العين بطعام من غسيل، وعن القصور

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما.

العالية بالهاوية، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الآخرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٦﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالصَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ قُلْ يَسْتَوِيان مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتعلة على الغرف العاليات، والقطوف الدانيات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ولا يصفون ولا يتمخضون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون؛ ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿مثل الفريقين﴾ أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء، والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الصحيح فلا يسمع ما يتفهم به، ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾، وأما المؤمن ففطن ذكي، بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ أفلا تعتبرون فتفكرون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾، وكقوله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير • ولا الظلمات ولا النور • ولا الظل ولا الحرور • وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِ اتَّخَذُوا لَكَ مَثَلًا قُلْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسَافِ ﴿٧٩﴾ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ بِكَ آيَاتٍ إِلَّا الْآيَاتِ الْبَشَرِيَّةِ هُمُ الرَّاكِبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يعبر تعالى عن نوح عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾، وقوله: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً، ﴿فقال الملا الذين كفروا من قومه﴾، والملا هم (السادة والكبراء) من الكافرين منهم ﴿ما نراك إلا بشراً مثلاً﴾، أي لست بملك ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاقة وأشياهم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك، ولهذا قالوا: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ أي في أول باديء ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾، يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق لما دخلتم في دينكم هذا، ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة. هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونهم هم الأراذل ولو كانوا أغنياء. والغالب على الأشراف والكبراء مخالفة الحق، كما قال تعالى: ﴿قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل^(١)، وقولهم: بادي الرأي ليس بمذمة ولا عيب، لأن الحق إذا وضع لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي

(١) أخرجه البخاري وهو جزء من حديث طويل.

واضح، وفي الحديث: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر، فإنه لم يتلعم»^(١) أي ما تردّد ولا تروى، لأنه رأى أمراً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع، وقوله: «وما نرى لكم علينا من فضل»، هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق لا يسمعون ولا يسمرون، بل هم في ريبهم يترددون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْرِفٍ مِنْ رَبِّي وَرَأَيْتُمْ نِعْمَةَ رَبِّي عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ كَارِهِونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك: «أرايتم إن كنت على بينة من ربي» أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، «فعميت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردها» «أتلزمكموها» أي نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون.

﴿وَتَقَرَّبْ لَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أُجْرَىٰ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُنْتَقِبُونَ لِرَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِئُكُمْ قَوْمًا مَّجْهُولُونَ ﴿٢٩﴾ وَتَقَوْمٌ مِّنْ يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ لَخَشِيعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

يقول لقومه: «ولا أسألكم على نصحي» «مألاً» أجرة أخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل. «وما أنا بطارد الذين آمنوا» طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي».

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خِزَانٌ مِّنْ عَشْمٍ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خِزَانٌ مِّنْ عَشْمٍ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خِزَانٌ مِّنْ عَشْمٍ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خِزَانٌ مِّنْ عَشْمٍ ﴿٣١﴾﴾ .

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده، ولا يسألهم على ذلك أجراً، ثم هو يدعو الشريف والوضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو مبشر مرسل مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتفرونهم وتزددونهم، إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم «الله أعلم بما في أنفسهم»، فإن كانوا مؤمنين، فلهم جزاء الحسن.

﴿قَالُوا يَتَّبِعُنَا فَجِدَلْنَا فَكَلَّمْنَا فَمَا نَبَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ السَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنَا بِمُتَّبِعٍ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ شَيْءٌ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَمْلَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُجْئُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه - والبلاء موكل بالمنطق - «قالوا يا نوح قد جدلنا فأكثرت جدالنا» أي حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك، «فدلنا بما تعدنا» أي من النعمة والعذاب ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به، «إن كنت من الصادقين» قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين» أي إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء، «ولا يضعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم» أي أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي «إن كان الله يريد أن يغويكم» أي اغواؤكم ودماركم، «هو ربكم وإليه ترجعون» أي هو مالك أزمة الأمور، المتصرف المحاكم العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر وهو المبدئ المعيد.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قَدْ إِنْ أَفَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ هِيَ إِلَّا نَجْوَىٰ بَيْنِي وَبَيْنَآ فَجُحِشُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

(١) أخرجه الشيخان في فضائل أبي بكر.

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكداً لها مقرر لها، يقول تعالى لمحمد ﷺ أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون اقتري هذا وافعله من عنده، ﴿قُلْ إِنْ اقْتَرَبْتُمْ عَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي قائم ذلك عليّ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرِمُونَ﴾ أي ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى، لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا أَنْ نُوحِيَ أَنَّكَ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا يَتَّبِعُنَا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَ الْفُلْكِ بِأَعْيُنِنَا ذَرِيَّتَنَا وَلَا نَخَافُ عِتَابَ عِبَادِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَجُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَصْحَ الْفُلْكِ وَكَلَّمَ مَرْءًا مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُونَ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح، لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾، ﴿فدعا ربه أني مغلوب فاتتصر﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم، ﴿واصنع الفلك﴾ يعني السفينة، ﴿بأعيننا﴾ أي بمرأى منا، ﴿ووحينا﴾ أي تعليننا لك ما تصنعه، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾، قال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين، وعن الحسن: طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة، وقيل غير ذلك، قالوا: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَ مَرْءًا مِّنْ قَوْمِهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي يهزأون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق، ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ الآية، وعيد شديد وتهديد أكيد، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يهينه في الدنيا، ﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾ أي دائم مستمر أبداً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَظَنَّ أَن لَّمْ يَخُذْ أُنْجُسًا إِتْمِلًا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَرِيَّةٍ أَن تَكُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَذَرَىٰ ذُرِّيَّتَهُمْ أَلْفًا بِآلِ الْفُلْكِ يَدْعُونَ إِلَى الْفُلْكِ أَن يُنقِذَهُمْ وَيَأْتِيهِمْ مِنَ الثَّمَرِ أَلْفًا مِّنْ قَوْمِهِمْ قُلْ أُوذِيَْتُ بِالْقَوْمِ وَلَٰكِنِّي أُجِيبُهُمْ بِمَا جَاءَنِي وَإِنِّي خَشِيتُ أَن يَأْتِيَ صَارِفًا ﴿٣٠﴾﴾.

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام، إذا جاء أمر الله من المظر الهتان، الذي لا يقلع ولا يفر، كما قال تعالى: ﴿ففتحتنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾، وأما قوله: ﴿وفار التنور﴾، فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تقور، حتى فار الماء من الثناير التي هي مكان النار صارت تقور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، فحيتبذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة ﴿من كل زوجين اثنين﴾ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى، وقوله: ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقربته، ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ منهم ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه (بام) الذي انمزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله، وقوله: ﴿ومن آمن﴾ أي من قومك، ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف ستة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل: كانوا عشرة، والله أعلم.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمِيعًا وَعَمْرُنَا وَمَنْ يَمُرُّ بِهَا فَمَا يَجْرِبْهَا فَيَجْرِبْهَا لَنْ نُؤْمِنُ بِهَا إِنْ لَمْ يَأْتِ بِهَا بِنُورٍ مُّبِينٍ ﴿٣١﴾﴾ وَرَبِّ قَوْمِي يَهْتَدِي فِي تَوَجُّهِ كَالْجِبَالِ وَكَأَنِّي نُوْحٌ آتَيْتُكَ وَكُنْتُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ سَوِّدْنَا لَكَ جَبَلًا يَعْصِيُ مِنْ أَمْرِنَا قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ وَالنَّارُ تَلْقَوْنَ فِيهَا ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام للذين أمر بحملهم معه في السفينة أنه قال: ﴿اركبوا فيها بسم الله فنجراها ومرساها﴾ أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون متنها سيرها وهو رسوها. قال تعالى: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجاننا من القوم الظالمين﴾، ولهذا

تستحب التسمية في ابتداء الأمور، عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما روى الطبراني، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أمان أمي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك» وما قدروا الله حق قدره. - الآية - «بسم الله مَجْرَاهَا وَمَرَسَاهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»، وقوله: «إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله: «إِنْ رَبِّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»، وقوله: «وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ» أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبق جميع الأرض، حتى طغى على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل: بشماتين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء بإذن الله وكشفه وعنايته، كما قال تعالى: «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكَرًا وَنُعَبِّئُهَا بِمَاءٍ وَأَرْضٍ لِيُكْفِرَ عَنْهَا رَبِّي إِنْ كَانَ كُفْرًا»، وقوله: «وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ الْآيَةَ، هَذَا هُوَ الْابْنُ الرَّابِعُ وَاسْمُهُ يَامٌ^(١) وَكَانَ كَافِرًا، دَعَاهُ أَبُوهُ أَنْ يُؤْمِنَ وَيُرِكَبَ مَعَهُمْ، وَلَا يَغْرُقُ مِثْلَ مَا يَغْرُقُ الْكَافِرُونَ، «قَالَ سَأُوِي إِلَى جِبَلٍ يَعْصَمُنِي مِنَ الْمَاءِ» اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال لو أبوه نوح عليه السلام «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ رَحْمِهِ» أي ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله، وقيل إن «عَاصِمٌ» بمعنى (معصوم) كما يقال: طاعم وكاس، بمعنى مطعم ومكسو «وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُنْفَرِقِينَ».

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ يَأْتِيَنَّكَ أَلْفُيَا وَغِضَّ الْمَاءُ وَفُيَ الْأُمَمُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْجُودِيِّ﴾^(١١)

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر «وغيض الماء»، أي شرع في النقص، «وقضي الأمر» أي فرغ من أهل الأرض قاطية ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار، «واستوت» السفينة بمن فيها «على الجودي»، قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة أرسى عليه سفينة نوح عليه السلام، وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها وأبقى الله السفينة على الجودي عبرة وآية، حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً، وقال الضحاك: الجودي جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور، وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي، وقال قتادة وغيره: ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم، وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير، وأنهم صاموا يومهم ذلك، والله أعلم، وقوله: «وقيل بعداً للقوم الظالمين» أي هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية، وقد روى ابن جرير عن عائشة زوج النبي ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي».

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَجُلَهُ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي مِنْ أُمَّلِي وَإِنِّي عَلَى الْخُلُقِ نَدِيمٌ وَأَعَدَدْتَ لِي الْبُحْرَانَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبَ﴾^(١٢) قَالَ يَسُوعُ إِنَّهُ ابْنُ بَنِي آفِيلَةَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ سَابِقٍ فَلَا تَنْتَهِينَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ أَعْطَلَكُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(١٣) قَالَ رَبِّي إِنِّي أَعْرَضْتُ بِكَ أَنْ أَسْأَلُكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَنْفِرْ لِي وَتَرْجُمَنِي أَحْسَنُ مِنَ الْحِكْمِيِّينَ﴾^(١٤)

هذا سؤال استعمال من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق: «فقال رب إن ابني من أهلي» أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ووعدتك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين، «قال يا نوح إنه ليس من أهلك» أي الذين وعدت إنجاءهم لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: «وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم» فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق، لكفره ومخالفته أباه نبي الله

(١) وقيل اسمه كنعان، وهو الهالك، وأما الناجي من ولد آدم فهو (سام، وحام، ويافت).

نوحاً عليه السلام، قال ابن عباس: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية، وقال عكرمة: إنه عمل عملاً غير صالح، ويروى أن رسول الله ﷺ قرأ بذلك.

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّا سُجُودُكَ فَمِمَّنْ مَعَنَا وَعَدَاكَ

آيَةٌ ﴿١٤٤﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء، وانسدت بناهض الأرض وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ الآية، فجعل الماء ينقص ويفيض ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال، وظهر البر، وكشف نوح غطاء الفلك ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

﴿يَلَاكُ مِنَ اللَّهِ الْغَيْبُ نُوحِيًّا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ السَّفِينَةَ لِلْمُنَوِّبِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ هذه القصة وأشباهاها ﴿من أنباء الغيب﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحياً إليك على وجهها كأنك شاهدتها ﴿نوحياً إليك﴾ أي تعلمك بها وحياً منا إليك، ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾ الآية، ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُودًا قَالُ بِتَقْوَىٰ آتَيْنَاهُم مَّا لَكُم مِّنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُنْفَكُونَ ﴿١٤٦﴾ يَنْفَرُوا لَا اسْتَفْزَاكَ عَلَيْهِمْ جُرْأٌ إِنْ أَخْرَجَكَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرْنَا أَمْمَالَهُمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِيَوْمِئَذٍ ﴿١٤٧﴾ وَتَقْوَىٰ اسْتَفْزَعُوا رَبَّكُمْ شَوْ قُورًا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَرَزَقَكُمْ قُوَّةً بِكُفْرِكُمْ وَلَا تَنْزَلُوا عُجْرًا ﴿١٤٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى عاد أخاهم هوداً﴾ أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم هذا النصح والبلاغ من الله إنما يعني ثوابه من الله الذي فطره، ﴿أفلا تعقلون﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجره، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالترية عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه، ولهذا قال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾، وفي الحديث: ﴿من لزم الاستغفار جعل الله له من كل فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب﴾.

﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَاتِنَا مِنْ قَبْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٩﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَدْنَا بِمَعَىٰ آلِهَاتِنَا كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ إِذْ قَالَ لِلَّهِ وَأَشْهَدُ أَنَّ بَرِيءٌ مِّنَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٥٠﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونٌ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظَرُونَ ﴿١٥١﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ كَذِبَةٌ إِنَّمَا هِيَ إِذْ يَقُولُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥٢﴾﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيه: ﴿ما جئتنا ببينة﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه، ﴿وما نحن بتاركي آلِهتنا عن فولك﴾ أي بمجرد فولك أتركوهم نتركهم ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ بمصدقين، ﴿إن نقول إلا اعتدنا ببعض آلِهتنا بسوء﴾ يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخيل في عقلك، بسبب نهيك عن عبادتها وعييك لها، ﴿قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون﴾ من دونه، ﴿يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، فكيدوني جميعاً﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ثم لا تنظرون﴾ أي طرفه

فَمَقَرُّهَا فَقَالَ تَسْمَعُوا فِي دَارِكُمْ فَلَمَّا أَتَاهُ ذَلِكَ وَعَدَّ عِزٌّ مَكْدُوبٌ ﴿١٥﴾ لَمَّا حَاكَ أُمَّتَنَا حَبِيبَنَا حَلِيمًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن جَزَائِ قَوْمِهِمْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الضَّمِيمَةَ فَأَحْبَبُوا فِي رِيضِهِمْ جَنَّاتٍ ﴿١٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَقْتَرُوا فِيهَا إِلَّا آيَةً تُسَوِّأُ كُفْرًا وَرَبِّهِمْ الْأَبَدُ لِنُورٍ ﴿١٨﴾

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ها هنا وبالله التوفيق .

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لِيكَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا ضَعْفَ لَهُمْ نَكَرَهُمْ فَأَجْمَسَ بِهِمْ خِيْفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿١٦﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةً فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ الْعَقِيلُ ﴿١٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنتَ الْعَقِيلُ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى : ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ وهم الملائكة ﴿إبراهيم بالبشرى﴾ ، قيل تبشره بإسحاق ، وقيل بهلاك قوم لوط ، ويشهد للأول قوله تعالى : ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط﴾ ، ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي عليكم ، قال : علماء البيان : هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿فما ليث أن جاء بعجل حنيز﴾ أي ذهب سريعاً ، فاتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر ، ﴿حنيز﴾ مشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة ، هذا معنى ما روي عن ابن عباس وقتادة وغير واحد ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ فقربه إليهم قال ألا تأكلون؟ وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة ، وقوله : ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ نكرهم ، ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ، فهذا رأى حالهم معرضين عما جاء به فارغين عنه بالكلية ، فعند ذلك نكرهم ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ قال السدي : لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيّفوه ، فلما رأهم أجلهم ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ فذبحه شم شواه في الرضف وأتاهم به فقعده معهم ، وقامت سارة تخدمهم ، فذلك حين يقول : ﴿وامراته قائمة﴾ ^(١) وهو جالس ، فلما قربه إليهم ﴿قال ألا تأكلون؟﴾ قالوا : يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بشمن ، قال : فإن لهذا ثمناً ، قالوا : وما ثمنه؟ قال : تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره ، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال : حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ ، يقول فلما رأهم لا يأكلون فرغ منهم وأوجس منهم خيفة ، وقالت سارة : عجباً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعاماً؟ ﴿قالوا لا تخف﴾ أي قالوا : لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم ، فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم ، وغلظ كفرهم وعنادهم ، قال ابن عباس : ﴿فضحكت﴾ أي حاضت ، وقول وهب بن منبه : إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق ، فمخالف لهذا السياق ، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي يولد لها يكرن له ولد وعقب ونسل ، فإن يعقوب ولد إسحاق ، ومن هنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو (إسماعيل) وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل ، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحها وأبينه والله الحمد ، ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ الآية ؛ حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى فإنها ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز﴾ ، وفي الذاريات

(١) امرأة إبراهيم : هي سارة ، والغلام الذي بشرت به - كما ذكره السهيلي - هو إسحاق ، قال : ولم تلد سارة لإبراهيم غيره ، وأما إسماعيل فهو بكره من هاجر القبطية .

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فُصِّكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب، ﴿قَالُوا أَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير، ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود منجد في صفاته وذاته.

﴿لَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ خَلَعَتْ رِيثَهُمْ فَوَجَدْتُمُ الْمَلَائِكَةَ خِيفَةً حِينَ لَمْ يَأْكُلُوا فِي قَرْيَةٍ مِنْ قَبْلُ قَالُوا يَا مُوسَى إِيَّانَا فَاطْمَئِنَّا بِمَا أَمَرَ رَبِّي وَإِنَّا بِرَأْيِ رَبِّنَا لَمُتَّقِينَ﴾ (٧٦) ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَبْهُونَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَبْهُونَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧٨)

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا ويشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: أرايتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إِن فِيهَا لُوطُ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ الآية، فسكت عنهم واطمأنت نفسه^(١)، وقوله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ الآية، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا مِنْهُنَّ أُولَئِكَ بِمَا عَصَبْتَ قَوْمًا فَؤُومًا يَسْرِعُونَ﴾ (٧٧) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٧٨) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٧٩) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٨٠) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٨١) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٨٢) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٨٣) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٨٤) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٨٥) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٨٦) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٨٧) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٨٨) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٨٩) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٩٠) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٩١) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٩٢) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٩٣) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٩٤) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٩٥) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٩٦) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٩٧) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٩٨) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (٩٩) ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رَمَيْنَاكَ فِي الْأَرْضِ مَكْرُومًا﴾ (١٠٠)

يخبر تعالى عن قدوم الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه، فانطلقوا من عنده فاتوا لوطاً عليه السلام، وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاء من الله - وله الحكمة والحجة البالغة - فسأه شأنهم وضاعت نفسه بسببهم، وخشي أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمَ عَصِيبٍ﴾، قال ابن عباس: شديد بلاؤه، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك. وذكر فتادة أنهم أتوه وهو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال فتادة وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبينهم بذلك، قال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي، فقلوا: يا جارية هل من منزل؟ فقالت: مكانكم حتى آتيكم وفرقت عليهم من قومها فأنت أباهما فقالت: يا أبتاه أدرك فتياً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك وكان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنضيف الرجال، فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه، وقوله: ﴿يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك، وقوله: ﴿وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَمْلِكُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي لم يزل هذا من سجيبتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال، وقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يرشدهم إلى نساءهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَتَلَدُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رِبِّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ

(١) قاله سعيد بن جبير رضي الله عنه.

بناتي من أظهر لكم» قال مجاهد: لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته، وكذا روي عن قتادة وغير واحد. وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي اقبلوا ما أمركم به من الاقتصاد على نساءكم، ﴿الَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَشِيدٌ﴾ أي فيه خير، يقبل ما أمره به ويترك ما أنهأه عنه، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بِنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نستهيبن، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور وأنت تعلم ذلك، فأبي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنما نريد الرجال.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أُوَدِّعُ إِلَى ذُرِّيَّتِكُمْ أَلاَّ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ فَمَا لِيَ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ إِذْ يَقُولُ عَصَا إِبْرَاهِيمَ وَمَا تَأْتِي بِكُمُ اللَّيْلُ وَالنَّجْمُ إِلَّا كَالسَّحَابِ الْمُدْمَغِمْ مَدْمَغًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام أن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ الآية، أي لكنت تكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»، فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه، ﴿قَالُوا يَا لَوْتُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لِنُصَلِّبَنَّكَ إِذْ تُسِرُّ بِأَهْلِكَ مِنْ هَاهُنَا وَمِنْ هَاهُنَا وَأَنْتُمْ لَا تُدْرِكُونَ﴾ وقالوا يا لوط إنا نرسل ربك لن يصلوا إليك وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أديارهم، أي يكون ساقية لأهله، ﴿وَلَا يَلْتَمِسُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة، وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَمِسُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ ذكروا أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفت وقالت: واقوما، فجاءها حجر من السماء فقتلها، ثم قربوا له هلاك قومه تشييراً له لأنه قال لهم: أهلكوهم الساعة، فقالوا: ﴿إِنْ مَوْعِدُكُمْ الصُّبْحُ الْبَاقِرُ فَاصْبِرْ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف، قد جاءوا بهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه ويتهجدونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام، فضرب وجوههم بجانحه فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ الْأَعْيُنَ نَنُوحُوا لَنَكُونَ مِنَ الْخَالِدِينَ﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا أَلْهَمْنَا سَقَمًا وَكَلْبًا مُجْرِبًا﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا﴾ وهي سدوم ﴿سَافِلَهَا﴾، كقوله: ﴿فَفَشَاهَا مَا فَشَى﴾، ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا﴾ أي حجارة من سجيل، قاله ابن عباس وغيره. وقد قال في الآية الأخرى: ﴿حِجَابًا مِنْ طِينٍ﴾ أي مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم: مشوية، وقال البخاري: ﴿سَجِيلٌ﴾: الشديد الكبير، سجيل وسجين اللام والنون أختان، وقوله: ﴿مَنْضُودٌ﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء أي معدة لذلك. وقال آخرون: ﴿مَنْضُودٌ﴾ أي يتبع بعضهم بعضاً في نزولها عليهم، وقوله: ﴿مَسُومَةٌ﴾ أي معلمة كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره، فقتبهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد، وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم كفأها؛ وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن؛ ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها. وقال قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتصف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها، فضمها في جناحه فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكومة، ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل، قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾

وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴿ فأهلكها الله وما حولها من المونتفكات . وقال السدي : لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله : ﴿والمونتفكة أهوى﴾ ، ومن لم يمض حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى ، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله ؛ فذلك قوله عز وجل : ﴿وأمطرنا عليهم﴾ أي في القرى حجارة من سجيل ، وقوله : ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ أي وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا شَعِيبًا قَالَ لِقَوْمِهِمْ إِنَّمَا كُنتُمْ بَشَرًا خَلِقُوا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ أَوَّلِ أُمَّةٍ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْدَاءَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي لَأَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى : ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قرياً من معان ، بلاداً تعرف بهم يقال لها (مدين) ، فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً ، ولهذا قال : ﴿أخاهم شعيباً﴾ بأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ، ﴿إني أراكم بخير﴾ أي في معيشتكم ورزقكم ، وإني أخاف أن تلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ، ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ أي في الدار الآخرة .

﴿وَيَقُولُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ الْمَكِالِ وَالْمِيزَانِ ﴿١٤٨﴾﴾

نهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن ، ونهاهم عن العثر في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق ، وقوله : ﴿بقية الله خير لكم﴾ ، قال ابن عباس : رزق الله خير لكم ، وقال الحسن : رزق الله خير لكم من يخسكم الناس ، وقال الربيع : وصية الله خير لكم ، وقال مجاهد : طاعة الله ، وقال قتادة : حظكم من الله خير لكم . وقال ابن جرير : أي ما يفضل لكم من الرزق بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس ، قلت : ويشبه قوله تعالى : ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ الآية ، وقوله : ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أي برفيق ولا حفيظ ، أي افعلوا ذلك لله عز وجل ، لا تفعلوا ليراكم الناس بل لله عز وجل .

﴿قَالُوا يَسْمَعَتِ السَّمَوَاتُ أَن نُّؤْمِنُ بِكَ يَا أُنثَىٰ أَوْ أَن نَّفْعَلُ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْكَلِيمُ ﴿١٤٩﴾﴾

يقولون له على سبيل التهكم - قبهم الله - ﴿أصلاحتك﴾ أي قراءتك^(١) ، ﴿تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ أي الأوثان والأصنام ، ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ فترك التطفيف عن قولك ، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد ، قال الحسن في الآية : أي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم ، وقال الثوري في قوله : ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ ؟ يمتنون الزكاة ، ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ ؟! يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبهم الله ولعنهم وقد فعل .

﴿قَالَ لِقَوْمِهِمْ إِن كُنتُمْ تَهْتَكُونَ بَيْتِي وَبَيْتَ رَبِّي وَمَنْ يَهْتَكِ بَيْتَ اللَّهِ فَحَسْبَ لِرَبِّي جَزَاءٌ مِّمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

يقول لهم ﴿أرأيتم﴾ يا قوم ﴿إن كنت على بيعة من ربي﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه ، ﴿ورزقتي منه رزقاً حسناً﴾ قيل : أراد النبوة ، وقيل : أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين ، قال الثوري : ﴿وما أريد أن

أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴿ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم ، وقال قتادة : لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه ، ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾ أي فيما أمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ، ﴿ وما توفيقى ﴾ في إصابت الحق فيما أريده ﴿ إلا بالله عليه توكلت ﴾ في جميع أموري ﴿ وإليه أنيب ﴾ أي أرجع ، قاله مجاهد . روى الإمام أحمد عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن الأنصاري قال : سمعت أبا حميد أو أبا أسيد يقول عنه ﷺ أنه قال : إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنأ أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكرو قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد فأنأ بعدكم منه ، ومعناه والله أعلم : مهما بلغكم عني من خير فأنأ أولاكم به ، ومهما يكن من مكروه فأنأ بعدكم منه . ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ ، قال أبو سليمان الضبي : كانت نجشنا كتب (عمر بن عبد العزيز) فيها الأمر والنهي ، فيكتب في آخرها : وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح ﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

﴿ وَتَعَوَّذُوا بِرَبِّكُمْ إِنَّ رَبَّكُمْ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ﴿ ١٠٩ ﴾ ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّكُمْ رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ﴿ ١١٠ ﴾ .

يقول لهم : ﴿ وما قوم لا يجرمتكم شقاقي ﴾ أي لا تحملتكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من العقوبة والعذاب ، وقال قتادة : ﴿ وما قوم لا يجرمتكم شقاقي ﴾ يقول : لا يحملتكم فراقي ، وقال السدي : عداوتي ، على أن تتماودوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم ، ولما أحاط الناس بعثمان بن عفان أشرف عليهم من داره فقال : ﴿ ما قوم لا يجرمتكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ﴾ ، يا قوم لا تقتلونني ، إنكم إن قتلتموني كتمت هكذا ، وشبك بين أصابعه^(١٠٩) ، وقوله : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ قيل : المراد في الزمان ، قال قتادة : يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل : في المكان ، ويحتمل الأمران ، ﴿ واستغفروا ربكم ﴾ من سالف الذنوب ، ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السبئية ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ لمن تاب .

﴿ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا إِنَّمَا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا حَمِيمًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿ ١١١ ﴾ قَالَ يَتَقَوَّى الرَّهْمَ أَهْرَ عَلَيْهِمْ مِنْ اللَّهِ وَالْأَعْدَاءُ وَرَأَوْكُمْ تِلْهُوًّا أَتَّكُفُّوا رِيبًا بِمَا تَعْمَلُونَ مُجِيطٌ ﴿ ١١٢ ﴾ .

يقولون : ﴿ يا شعيب ما نفقه ما نفهم ﴾ كثيراً ﴿ من قولك ، ﴿ وإنا لنراك فينا حميمًا ﴾^(١١١) ، قال السدي : أنت واحد ، وقال أبو روق : يعنون ذليلاً ، لأن عشيرتك ليسوا على دينك ، ﴿ ولولا رهمك لرجمناك ﴾ أي قومك ﴿ لرجمناك ﴾ قيل : بالحجارة ، وقيل : لسيانك ، ﴿ وما أنت علينا بعزير ﴾ أي ليس عندنا لك معزة ، ﴿ قال يا قوم أرهطي أهره عليك من الله ﴾ ، يقول : أتتركوني لأجل قومي ، ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساةة وقد اتخذتم جانب الله ﴿ ورأوهكم تلهوياً ﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ، ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزىكم عليها .

﴿ وَتَقَوَّى رَهْمًا عَلَى مَكَانِكُمْ إِن عِمِلْ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِنْ بَيْنِهِ عَذَابٌ مُخْرِبٌ وَمَتَّ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَفِقُوا إِلَى مَعَكُمْ رَيْبٌ ﴿ ١١٢ ﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا فَجَنَّتْهُمُ أَنْجَابُهُمْ فِي دِينِهِمْ حَبِيبٌ ﴿ ١١٣ ﴾ كَانَ لَرَبِّنَا فِيْنَا أَلْبَدًا لَمَيِّنٌ كَمَا بَدَأَ تَكْوِينَهُ ﴿ ١١٤ ﴾ .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) روي عن سعيد بن جبير والثوري أنهما قالا : كان شعيب ضريب البصر .

لما ينس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال: يا قوم ﴿اصعلقوا على مكاتكم﴾ أي طريفكم، وهذا تهديد شديد ﴿إني عامل﴾ على طريفتي، ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾، أي مني ومنكم، ﴿وارتقبوا﴾ أي انتظروا، ﴿إني معكم رقيب﴾، قال الله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين﴾، وقوله: ﴿جائعين﴾ أي هامدين لا حراك بهم وذكر هنا أنه اتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء ﴿عذاب يوم الظلة﴾، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، وقوله: ﴿كان لم يغنوا فيها﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ألا بعداً لمدین كما بعدت ثمود﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار وشيهاً بهم في الكفر وكانوا عرباً مثلهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ بَيْنَانًا وَشَلَطْنِي شَيْبًا ﴿١٦١﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ فَابْتِغَا أَنَّهُ فِرْعَوْنٌ وَمَا أَمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٦٢﴾ بَدَأُ فَرَمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ فَرِيضٌ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿١٦٣﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّقْدُ الْمَرْقُودُ ﴿١٦٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملكته ﴿فأتبعوا أمر فرعون﴾ أي متهمه ومسلكه وطريقته في الفنى، ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد؛ وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، ﴿يقدم قومهم يوم القيامة فأوردتهم النار وبئس الورد المورود﴾، وكذلك شأن المتبرعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿ربنا أتهم ضعفين من العذاب﴾ الآية، وقوله: ﴿وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة﴾ الآية، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا، ﴿ويوم القيامة بئس الرند المرفود﴾. قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان، وقال ابن عباس: لعنة الدنيا والآخرة^(١)، وهو كقوله: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُمْ عَلَيْكَ وَمِنْ أَنْبَاءِ الْوَحْشِيِّدِ ﴿١٦٥﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٦٦﴾﴾.

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، قال: ﴿ذلك من أنباء القرى﴾ أي أخبارهم، ﴿نقصه عليك﴾ أي حصارهم، ﴿والتبويب﴾ أي حصارهم، ﴿وما ظلمتَهُمْ﴾ أي إذا أهلكناهم ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿فما أغنت عنهم آلِهَتُهُمْ﴾ أي آلهتهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿من دون الله من شيء﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم، ﴿وما زادوهم غير تبويب﴾. قال مجاهد وقتادة: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ مِنْ ظَلَمَتِهِمْ إِنَّ أَخَذَهُمْ لَأَيْدِي شَدِيدٍ ﴿١٦٧﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك فعل بأشباههم، ﴿إن أخذهم شديد﴾. وفي «الصحيحين» عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن الله ليحلمي للظالم حتى إذا أخذهم لم يفلته﴾، ثم قرأ ﷻ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الآية.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن كَانَ عَلِيمًا ذَكِيًّا ذِكْرًا﴾ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْعَلُ لُحُوبَهُمْ كَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي يَوْمِ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا كَالْخَشَبِ الْمُجْلَبِ** ﴿١١٥﴾ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴿١١٦﴾ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴿١١٧﴾

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجاننا المؤمنين ﴿آية﴾ أي عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبِّهِمْ لِنَهْلِكَنَ الظَّالِمِينَ﴾ الآية. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَهُمْ وَأُولَاهُمْ وَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ مِنْ بَيْتِهِمْ بِالسَّيْفِ﴾ كقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطيور والوحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، ضرب مدة معينة إذا انقضت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي لا يزداد عليها ولا يتقص منها، ﴿يَوْمٌ يَأْتِي تَكْلِمُ فِيهِ السَّمْعَاءُ وَالْبَصَائِرَ وَالْجِبَّالَ الْوَّاهِبَةَ وَأَصْحَابَ الْأَنْبِيَاءِ نَسَبًا وَوَسْيًا وَمُزْمِنًا وَمُكَلِّمًا وَمَنْ يَشَاءُ﴾ أي لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، وفي «الصحيحين» في حديث الشفاعة: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم»، وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُشْفَعْ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ أَوْلِيَاءِهِ﴾ أي فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّمْعِيرِ﴾، ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا ذِكْرٌ وَهُمْ فِيهَا كَالْعِجْلِ فِي النَّارِ﴾ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْعَلُ لُحُوبَهُمْ كَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي يَوْمِ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا كَالْخَشَبِ الْمُجْلَبِ** ﴿١١٥﴾ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴿١١٦﴾ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴿١١٧﴾

يقول تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾، قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، «خالدين فيها ما دامت السموات والأرض» قال ابن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدرام أبداً قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك كله أبداً، فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ غَيْرَ السَّمَاوَاتِ﴾، ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ قال: يقول سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض، وعن ابن عباس قال: لكل جنة سماء وأرض، وقال ابن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء، وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك وإن ربك فعال لما يريد﴾، كقوله: ﴿النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾، وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة نقل كثيراً منها ابن جرير رحمه الله، واختار أن الاستثناء عائد على (العصاة) من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر لا إله إلا الله، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، وهذا الذي عليه كثير العلماء قديماً وحديثاً، وقال السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿خالدين فيها أبداً﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَلَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْعَلُ لُحُوبَهُمْ كَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي يَوْمِ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِيهَا كَالْخَشَبِ الْمُجْلَبِ** ﴿١١٥﴾ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴿١١٦﴾ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴿١١٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ففي الجنة﴾ أي فماواهم الجنة، ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكنين فيها أبداً، ﴿ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً،

وعقّب ذلك بقوله: ﴿عطاء غير مجدود﴾ أي غير مقطوع^(١)، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو ليس أو شيء، بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع، ﴿إن ريك فعال لما يريد﴾، كقوله: ﴿لا يستل عما يفعل وهم يسألون﴾، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عطاء غير مجدود﴾. وقد جاء في «الصحيحين»: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»، وفي «الصحيح» أيضاً: «يقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً».

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يعبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نصيبهم غير منقوص ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخَذَهُ مِنْهُ رَبُّكَ كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضَى بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ شَرِّ قَوْمٍ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّا لَنَلْقَا لِقَوْمِيَّتَهُمْ رَبِّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ المشركون إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء، قال سفيان الثوري، عن ابن عباس: ﴿وإننا لموقوفهم نصيبهم غير منقوص﴾، قال: ما وعدوا من خير أو شر، وقال ابن أسلم: لموقوفهم من العذاب نصيبهم غير منقوص، ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسرة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك، وقوله تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾ قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، ثم أخير تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم فقال: ﴿وإن كلاً لما ليوفيينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير﴾ أي عليم بأعمالهم جميعاً، جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها، وقوله: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ قال ابن عباس: هو الركون إلى الشرك، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم؛ وقال ابن جرير عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا؛ وهذا القول حسن، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم، ﴿فتمسك النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

﴿فانتقم كذا أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴿١١٧﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٨﴾﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد، وينهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء.

﴿وَأَمِيرَ الْكَلْبِ وَالنَّارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْمَسْتَشْتَبِ يَذُوبُ كَالشَّيْبَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَمِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

قال ابن عباس: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ قال: يعني الصبح والمغرب، وقال الحسن: هي الصبح والعصر. وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى، ﴿وزلفاً من الليل﴾ يعني صلاة

(١) قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد.

العشاء^(١). وقال مجاهد والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء؛ وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، والله أعلم.

وقوله ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء إن بغضني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلقتة فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له». وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال: «من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيها نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». وقال البخاري، عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم»^(٢).

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه»، قال: قلنا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا حراماً فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء»، ولكن يمحو السيء بالحسن، وإن الخبيث لا يمحو الخبيث»، وروى الإمام أبو جعفر بن جرير عن أبي اليسر (كعب بن عمرو الأنصاري) قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدهم تمرأ، فقلت: إن في البيت تمرأ أجود من هذا، فدخلت فاهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته فقال: اتق الله وامتنع على نفسك، ولا تخبرن أحداً، فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أخلفت رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى ظننت أنني من أهل النار، حتى تمنيت أنني أسلمت ساعتئذ، فأطرق رسول الله ﷺ ساعة، فنزل جبريل، فقال أبو اليسر: فحشمت فقرأ علي رسول الله ﷺ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ فقال إنسان: يا رسول الله أله خاصة أم للناس عامة؟ قال: «للناس عامة». وعن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن»^(٣)، وفي رواية عنه قال: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها»، قال: قلت: يا رسول الله أمن الحسنات (لا إله إلا الله)؟ قال: «هي أفضل الحسنات» رواه أحمد.

﴿تَوَلَّى كَانِ مِنَ الَّذِينَ يُبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا إِنَّهُمْ رَكِبُوا أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُحْسِنُونَ﴾^(١١٧)

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري ورواه مسلم وأصحاب السنن إلا أبا داود.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»، وقوله: ﴿وَاتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ﴾ أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجاهم العذاب، ﴿وَكَانُوا مجرمين﴾، ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة نقمته وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، وقال: ﴿وَمَا رَيْكَ بِظِلْمِ الْعبيدِ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُ مُخْتَلِفِينَ ﴿١٠٥﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، وقوله: ﴿ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم، قال عكرمة: مختلفين في الهدى، وقوله: ﴿إلا من رحم ربك﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم الفرقة الناجية، وقال عطاء: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿إلا من رحم ربك﴾ يعني الحنيفية، وقال قتادة: أهل رحمة الله: أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصية أهل الفرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم. وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾، قال الحسن البصري: وللأختلاف خلقهم. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله: ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ وعن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، وقيل: بل المراد للرحمة وللأختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إلا من رحم ربك﴾، فمن رحم ربك غير مختلف، فقيل له لذلك خلقهم، قال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه، وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير، وقوله: ﴿وتمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقليين (الجن والإنس) وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار: أوثرت بالمكبرين والمتجبرين، فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: ﴿هل من مزيد﴾ حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول: قط قط وعزتك».

﴿وَكَلَّا تَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِمُؤَدِّكَ رَسُولًا وَلَا كَلِمَةً وَلَوْ كُنَّا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى

لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزيه المؤمنين وحذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما ﴿ثبت به فؤادك﴾ أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة، وقوله: ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي في هذه السورة، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن وفتادة: في هذه الدنيا، والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق ونبا صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ آمَنُوا عَلَن مَّكَانَتِكُمْ إِنَّا عَاظِمُونَ ﴿١٢١﴾ وَإِنظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ .

يقول تعالى أمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي على طريقتم ومنهجكم، ﴿إننا عاملون﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا، ﴿وانتظروا إننا منتظرون﴾ أي فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

﴿وَقُلْ غِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِنِّي بِرَبِّهِ الرَّحِيمِ ﴿١٢٣﴾ كَلِمَةً قَاعِيَةً وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِمَغْفِلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه عالم غيب السماوات والأرض وأنه إليه المرجع والعآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه، فإنه كاف من توكل عليه وأتاب إليه، وقوله: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذوبك يا محمد بل هو عليهم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.